

ملاحم تداولية الدرجة الأولى في سورة القلم

أمنية لعموري*

ملخص:

يهدف هذا العمل إلى بحث تجليات عناصر تداولية الدرجة الأولى في الخطاب القرآني. وسيعتمد إلى مقارنة سورة القلم من خلال رصد العناصر الإشارية فيها (الشخصية منها والزمانية والمكانية وحتى الاجتماعية والخطابية)، ومحاولة الكشف عن مراجعها وما تعود عليه في الواقع من خلال الاعتماد على السياق. ويركّز العمل على مناقشة إشكالية مدى نجاعة المقاربة التداولية في قراءة النص القرآني قراءة كاشفة.

الكلمات المفتاحية: تداولية الدرجة الأولى – الإشارات – السياق – الخطاب القرآني

Abstract :

The aim of this work is to search for the manifestation of the enunciation in the Qur'anic discourse. It will approach Surah "el Qalam" by monitoring the deixis (personal, spatial, temporal and even social and discursive). We will also try to reveal its references in reality, depending on the context. This research focuses on the problematic of the effectiveness of this pragmatic approach in the in-depth reading of the Qur'anic text.

Key words: enunciation, deixis , context, Qur'anic discourse.

احتلت التداولية حيزا واسعا من مجال الدراسات التي تعنى بالخطاب وتحاول مقارنته مقارنة لا تهمل أي جانب من جوانبه السياقية والنسقية معا. ولعل هذه المحاولة في الإمساك بكل حيثيات الخطاب هو ما جعل التداولية تستند على خلفيات متعدّدة ومختلفة وتناقش قضايا تبدو للوهلة الأولى متباعدة، لذلك نعتت في بداياتها بأنها "سلة مهملات" باعتبارها حقلا يحكمه اللاتجانس في مرتكزاته ومبادئه وحتى في قضاياها.

وفي سبيل لمّ شتات محتويات الحقل التداولي، اقترح هانسون سنة 1974 مشروعا يوحد مختلف فروع التداولية. وقد قام فيه بتقسيم التداولية إلى ثلاث درجات مترتبة، تهتمّ كلّ درجة بجانب من جوانب استعمال اللغة و تمظهراته. وقد اعتمد هانسون في تقسيمه هذا على عنصر السياق لأن « أيّ تحليل تداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني

* أستاذ مساعد – أ.، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة أكلي محند أولحاج – البويرة.

للسياق الذي تؤول فيه الجملة».¹

واختلاف درجات التداولية مردّه إلى اختلاف عناصر السياق المعتمدة في تأويل عناصر تداولية معينة، ف«كلّ درجة تعتمد على اعتبار مظهر من مظاهر السياق ويمكن القول باغتناء السياق من درجة إلى أخرى وتعقده كذلك».²

1- درجات التداولية:

أ- تداولية الدرجة الأولى: تهتمّ هذه الدرجة بدراسة «الرموز الإشارية (أي التعبيرات المهمة حتما)، ضمن ظروف استعمالها (أي سياق تلفظها)».³

ويقصد بالإشارات (déictiques) «تلك الوحدات اللسانية الذي يتعلق اشتغالها في الإطار الدلالي المرجعي بالأخذ بعين الاعتبار بعض عناصر وضعية التخاطب».⁴ أي هي تلك العناصر اللغوية التي لا يمكن أن يستغني عنها أي تواصل لغوي، لكنها تبقى أوعية فارغة ما لم يتم إكسابها دلالة مستقاة من سياقات استعمالها. ولا نقصد بذلك أنّ الدلالة المعجمية لهذه العناصر الإشارية تتغيّر بتغيّر السياق ولكن ما يتغيّر هو المرجع الذي تحيل عليه. ولذلك «فمن أجل تحديد مرجع الأدوات إشارية وتأويل الخطاب تأويلا صحيحا، يلزم المتلقي أن يدرك لحظة التكلم، فيتخذها مرجعا يحيل عليه، ويؤول مكونات التلفظ اللغوية بناء على معرفتها».⁵

أمّا عن العناصر السياقية التي تتدخل لتحديد ما تحيل إليه عناصر الدرجة الأولى هي «الموجودات أو محدّدات الموجودات، ومن ثمّ فالسياق الوجودي والإحالي هو: المخاطبون، ومحدّدات الفضاء والزمن».⁶

يشتمل سياق الدرجة الأولى - في الأصل - على العناصر الأولية والضرورية التي يتحقق بها التواصل والمتمثلة في ثلاثية (الأنا- الهنا- الآن)، أو ما أسماه أحمد المتوكل بـ «المركز الإشاري» وقد حدّده في «متكلم، مخاطب، مكان، زمان».⁷ وهذا المفهوم الأخير يرتبط عنده «بإحالة الموضوعة» وقصد بها «الإحالة التي تحدّد موقع المحال عليه بالنظر إلى المركز

¹ - Catherine Kerbrat-Orrechionni, L'enonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Colin éditeur, Paris 1980. P185.

² - فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط 1986. ص38.

³ - نفسه، ص38.

⁴ - Catherine Kerbrat-Orrechionni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, p 36.

⁵ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب بمقاربة لغوية تداولية، ط01، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2004. ص83.

⁶ - فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص38.

⁷ - أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، ط01، منشورات الاختلاف، الجزائر 2010. ص80.

الإشاري" الذي يشمل المتكلم والمخاطب ومكان التخاطب وزمانه»¹.

ويمكن أن تدرج الإشارات ضمن مفهوم أعم هو الذاتية (subjectivité)، ويعتبر بنفست المؤسس الأول لهذا المفهوم والذي يعني « قدرة المتكلم على تقديم نفسه على أنه الفاعل في خطابه»² ويكون هذا التقديم من خلال آثار لسانية يتركها المتكلم في خطابه تشير إليه كصاحب ذلك الخطاب.

ويرى بنفست أن أهم مؤشر على الذاتية هو الضمائر (أو ما يسميه التداوليون بالإشارات الشخصية) ذلك أن «الضمائر تشكل المرتكز في خلق الذاتية في اللغة، وتشترك هذه الضمائر مع أنواع أخرى من الإشارات في الوضع نفسه. إنها أسماء الإشارة أو الحال أو النعت التي تنظم العلاقات المكانية والزمانية حول الفاعل (...) ولا يمكن فهم مدلول هذه الأدوات إلا من خلال معرفة سياق الكلام الذي استعملت فيه»³.

ب- تداولية الدرجة الثانية: يختص هذا المستوى « بدراسة طريقة تعبير القضايا، في ارتباطها بالجماعة المتلفظ بها، في الحالات الهامة، إذ على القضية المعبر عنها أن تتميز عن الدلالة الحرفية للجملة»⁴.

وللكشف عن الدلالة الضمنية يتم استدعاء عناصر سياق الدرجة الأولى إضافة إلى عناصر أخرى فيصبح سياق هذه الدرجة هو «سياق الإخبار والاعتقادات المتقاسمة، لا السياق الذهني، بل السياق المترجم إلى تحديدات العوامل الممكنة»⁵.

ج- تداولية الدرجة الثالثة: وهي المعروفة بـ «نظرية أفعال الكلام» لصاحبها الفيلسوف ج.ل. أوستين. تقوم هذه النظرية على فكرة أن العبارات اللغوية لا تصف الواقع إنما تسعى إلى تغييره، فتتحول اللغة من مجرد أقوال إلى أفعال ذات أبعاد اجتماعية.

وسياق هذه الدرجة هو الأكثر غنى وتعقيدا، فهو يضم سياق الدرجتين السابقتين وعناصر تتعلق بالعوامل الفردية والاجتماعية للفواعل المتكلمة⁶.

2- سياق الدرجة الأولى في سورة القلم:

سبقت الإشارة إلى أن سياق هذه الدرجة يتمثل في (الأنا- الهنا- الآن)، ولهذا سنعمد إلى تحديد المشاركين في الخطاب (المتكلم- المخاطب- المشاركون الغائب) وكذلك الإطار الزمني والمكاني له. وبما أن الخطاب المدونة بعيد زمنيا فإن معرفة سياقه ستعتمد أساسا على ما ورد فيالتفسير وأسباب النزول.

¹ - نفسه، ص 80.

² -Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, Cérès éditions, Tunis 1995. P258.

³ -Ibid, P261.

⁴ - فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص 38.

⁵ - نفسه، ص 38.

⁶ - نفسه، ص 39.

نزلت سورة القلم على الرسول ﷺ بصفته المتلقي الأول للوحي. كما أنها نزلت لطمأنته أن ما يحدث معه ليس جنونا إنما وحي يربطه بالله عز وجل في قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (02). كما فيها ثناء على الرسول القدوة لاكتمال أخلاقه وسموها في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (04).

ولم يكن هذا الهدف الوحيد من نزول السورة، إنما جاءت أيضا لتنذر المشركين الذين اتهموا الرسول الكريم بالجنون، وحاولوا مساومته ليرجع عن دعوته ويتخلى عن رسالته. فوصفهم الله بأقبح الصفات وضرب لهم مثل "أصحاب الجنة" ليحذّرهم من عاقبة كفرهم وأنّ مالهم لن يغني عنهم شيئا.

ثم تنتهي السورة بحث النبي عليه الصلاة والسلام على الصبر على ما ابتلاه من إغراض المشركين على إتباع طريقه، ضاربا له مثل سيدنا يونس عليه السلام. ومما سبق من عرض لمضمون السورة ومناسبة نزولها يمكن أن نحدّد عناصر سياقها (في الدرجة الأولى) في ما يأتي:

أ- المشاركون:

المتكلم: القرآن هو كلام الله تعالى المنزل على نبيه محمد ﷺ بواسطة الوحي جبريل عليه السلام. فالتكلم هو الله عز وجل.

وعلى امتداد سور وآيات القرآن الكريم يمكن أن نجد متكلمين غيره لكنّ خطابهم يمكن إدراجه ضمن ما يسمى بالخطاب المنقول لأنّ الله سبحانه وتعالى ينقل إلينا ما قالوه وما فعلوه في إطار القصة المثل.

المخاطب: الخطاب القرآني موجه بالدرجة الأولى إلى الرسول ﷺ، وفي بعض الأحيان يتعدّد دور الرسول ﷺ في كونه المخاطب من جهة والوسيط بين الله تعالى و مخاطب آخر. إذ نزلت الآيات من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ (10) إلى قوله تعالى: ﴿سَنَسِيْمُهُ عَلَى الْحَرْطُومِ﴾ (16) في شخص معيّن خاصم الرسول ﷺ وحاربه وسعى في تأليب الناس عليه. وقد جاء في التفاسير أنّ المقصود بالقول هو «الأخنس بن شريق الثَّقَفِيّ حليف بني زُهرة. وزعم ناس من بني زُهرة أن الزنيم هو: الأسود بن عبد يغوث الزُهريّ، وليس به»¹. وهذا معناه أن المرجح هو الأخنس بن شريق*. وفي رواية أخرى تؤكد ذلك: «قال: أخبرنا محمد بن عبيد قال: حدّثني زكريا بن أبي زائدة قال: سئل عامر عن الزنيم، قال: هو الرجل يكون له الزّنة من الشّر يعرف بها، وهو

¹ - إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ج 08، ط 02، دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية 1999. ص 193.

* هو أبي بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج. واسمه غُمَيْر بن أبي سلمة، وكان اسمه أُمَيّا. فلمّا أشار على بني زهرة بن كلاب بالرجوع إلى مكّة حين توجّهوا بالنّفير إلى بدر ليمنعوا العير فقبلوا منه فرجعوا، فقيل: خَنِيسَ بهم فسوّي الأخنس يومئذ. (...) وأسلم الأخنس بن شريق يوم فتح مكّة وشهد مه رسول الله ﷺ حينئذ. وتوفي في أول خلافة عمر بن الخطاب. ينظر: - محمد بن سعد الزهري، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق: علي محمد عمر، ج 06، ط 01، مكتبة الخانجي، القاهرة 2001. ص 77.

رجل من ثقيف يقال له الأخنس بن شريق»¹.

كما وجّه الخطاب في السورة لسادة قريش الذين حاولوا مساومة الرسول ﷺ ليتنازل عن رسالته مقابل الوجاهة والمال وليحافظوا على مكانتهم بين القبائل، فأشار إليهم الله تعالى في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۚ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (09/08). وقد عدّدهم سيّد قطب في الظلال «...عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب بن أمية وأبو اليختری واسمه العاص بن هشام والأسود بن المطلب بن أسد. وأبو جهل (واسمه عمرو بن هشام وكان يكنى أبا الحكم) والوليد بن المغيرة ونبيه ونبه ابنا الحجاج...»².

ولم يكتف المشركون بوصف الرسول ﷺ بالجنون ومساومته على دعوته بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين «أرادوا أن يُصيّبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه. وقيل: كانت العين في بني أسد، حتى إن البقرة السمينية أو الناقة السمينية تمرّ بأحدهم فيعابنها ثم يقول: يا جارية، خذي المكمل والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت فتنحر (...) فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي ﷺ بالعين فأجابهم...فعصم الله نبيّه ونزلت الآية»³. وهو ما نزلت فيه الآية: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (51).

المشارك الغائب: وهو الذي يحضر في الخطاب من خلال أفكار أو مواقف وهو في السورة الكريمة حاضر من خلال التمثيل به وجعله عبرة لغيره من المخاطبين وتمثل في: أصحاب الجنة: والذي ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (17) وجاء في التفاسير أن قصة أصحاب الجنة قد تكون معروفة ومتداولة بين العرب لذلك مثل الله لهم بها. أمّا أصحاب الجنة فقد «- ذكر بعض السلف أنّ هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن - قال سعيد بن جبّير: كانوا من قرية يقال لها ضَرَوَانُ على ستة أميال من صنعاء. وقيل: كانوا من أهل الحبشة»⁴.

- صاحب الحوت: هو نبي الله يونس عليه السلام، وسعي بصاحب الحوت لأن الحوت ابتلعه عاقبة لعدم صبره على نكران أهله لنبوته وعدم امتثالهم لدعوته. وقد «بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل " نينوى" من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم، ووعدهم

¹ - محمد بن سعد الزهري، كتاب الطبقات الكبير، ص 77.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 29، ط 32، دار الشروق، بيروت 2003، ص 3659.

³ - محمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج 21، ط 01، مؤسسة الرسالة، بيروت 2006، ص 184.

⁴ - إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 08، ص 197.

حلول العذاب بهم بعد ثلاث»¹.

ب- الإطار الزمني:

ويقصد به زمان ومكان نزول السورة، كما يمكن أن يكون زمن ومكان الأحداث التي تضمّنتها السورة. وهي الأزمنة والأمكنة التي تحيل إليها الإشارات المكانية والزمانية. وسورة القلم مكيّة نزلت في مكة المكرمة أمّا عن زمن نزولها يقول سيّد قطب: «لا يمكن تحديد التاريخ الذي نزلت فيه هذه السورة سواء مطلعها أو جملتها. كما أنّه لا يمكن الجزم بأن مطلعها قد نزل أولاً، وأنّ سائرها نزل أخيراً- ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال. لأنّ مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد»².

ومن خلال مضمون السورة يمكن تحديد الزمن العام لنزولها وهو بعد الجهر بالدعوة بفترة ليست لا بالوجيزة ولا بالطويلة ويمكن تأكيد ذلك من خلال ما قاله سيد قطب: «والذي نرجحه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية في ترتيب النزول، وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية بعد أمر النبي ﷺ بالدعوة العامة (...). وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شيء من قصص الأولين وأخبارهم (...). وبعدما أصبحت قريش مدعوة إلى الإسلام كافة»³.

3- عناصر تداولية الدرجة الأولى في سورة القلم:

أ- الإشارات الشخصية: يرى محمود أحمد نحلة أنّ «أوضح العناصر الإشارية الدالة على شخص هي ضمائر الحاضر (...). وضمائر الحاضر هي دائماً عناصر إشارية لأن مرجعها يعتمد اعتماداً تاماً على السياق الذي تستخدم فيه»⁴. فلا يمكن أن نعرف على من يعود الضمير (أنا) إذا لم نعرف من هو صاحب الخطاب، وهل هو المسؤول عن التلقّظ أم أنّه مجرد ناقل للملفوظات. وكذلك الحال بالنسبة لباقي الضمائر التي ترد في الخطاب والتي تحتاج إلى سياق تتضح من خلاله.

وهناك من يرى بأن استعمال الضمير بدل الاسم الظاهر يحقق ثلاثة فوائد هي⁵:

- الاختصار ولعلّها أبرز الفوائد، خاصّة حين ينوب الضمير عن أكثر من دال.
- تفخيم ما يعود إليه الضمير، فالإضمار ناتج عن شهرة المضمّر.
- التّحقير.

¹ - إسماعيل بن كثير، قصص الأنبياء، تحقيق: عبد الحي الفرماوي، ط05، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة 1997. ص 363.

² - سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص 3650.

³ - نفسه، ص 3651.

⁴ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط01، مكتبة الآداب، القاهرة 2011. ص 18.

⁵ - ينظر: محمد عبد الباسط عيد، النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، ط01، مكتبة الآداب، القاهرة 2009. ص 214-215.

وتتنوع المراجع التي تشير إليها الضمائر الواردة في سورة القلم وقد جاءت على النحو

التالي:

الضمائر التي تشير إلى الله عز وجل:

لم يشر الله تعالى في السورة إلى ذاته بضمير منفصل دال على المتكلم، إنما كل الضمائر التي تشير إلى الذات الإلهية جاءت متصلة بصيغة الجمع ممثلة في الحرف "النون" في مثل قوله تعالى: ﴿إِذَاتُنْ لِي عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (15)، وفي قوله أيضا: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (17).

ويفسر استعمال صيغة الجمع للمفرد في القرآن الكريم بغاية التعظيم، وفي هذا يقول ابن تيمية: «وكل صيغ الجمع التي ذكر الله بها نفسه مبنية على ما يستحقه من العظمة ولكثرة أسمائه وصفاته وكثرة جنوده وملائكته»¹.

ولم يشر إلى لفظ الجلالة بضمير متصل مفرد إلا ثلاث مرات في قوله: ﴿فَدَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ (44) وفي قوله: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (45)، وأيضا في قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ (45).

كما أشار الله تعالى في السورة إلى ذاته باستعمال ضمير الغائب المنفصل (هو) وكذلك المتصل "الماء" في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (07). لكن الملاحظ أن الضمير المنفصل "هو" فقد بعده الإشاري لعودته على عنصر حاضر في السياق اللغوي ذلك أن «ضمير الغائب يدخل في الإشارات إذا كان حراً أي لا يعرف مرجعه من السياق اللغوي، فإذا عرف مرجعه من السياق اللغوي خرج من الإشارات»². وهو ما حدث في الآية السابقة حيث عاد الضمير (هو) على (ربك) المذكورة في الآية.

الضمائر المشيرة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم:

يحضر الرسول عليه الصلاة والسلام في خطاب السورة المخاطب ولهذا كانت الإشارة إليه بضمير المخاطب المفرد المنفصل في قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (02) وذلك لمرة واحدة فقط، وتمت مخاطبته في مواضع أخرى إما اعتمادا على الضمير المتصل في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ● وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (04/03)، أو اعتمادا على الضمير المستتر في الآية ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (08) أو في الآية: ﴿سَلِّمْهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ (40).

كما تمت الإشارة إلى النبي الكريم في آخر السورة بالضمير المتصل الدال على

¹ - تقي الدين بن تيمية، التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، تحقيق: محمد بن عودة السعوي، ط06، مكتبة العبيكان، الرياض 2006. ص 75.

² - محود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 18.

الغائب "الهاء" في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (51) ومردّد استعمال هذا الضمير أنّ الخطاب منقول على لسان المشركين.

الضمائر التي تشير إلى المشركين:

تحدّث الله عزّ وجلّ في السورة الكريمة عن المشركين بصيغة الغائب في أغلب المواضع*، مثلاً في قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ (05) وفي قوله أيضاً: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (09) وكذلك في الآية: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (42)

واستعمال صيغة الغائب (ضمائر منفصلة أو متصلة أو حتى مستترة) جاءت في حديث الله تعالى مع النبي عليه الصلاة والسلام من باب طمأنته بأنّ كيد الكافرين في نحورهم وأنهم لا يستطيعون شيئاً وأن الله هو من سيتولّى أمرهم و يعاقبهم أشدّ العقاب في الدنيا والآخرة.

وأيضاً تمّت الإشارة إلى المشركين بضمير المخاطب* في الآية: ﴿أَنَاغِدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ (22) وقد قصد هنا أصحاب الجنة، وفي قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، أمّ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37/36) مخاطبا المشركين عامّة، من كان حاضراً منهم في زمن الخطاب ومن سيأتي بعدهم.

وهذا الاستعمال لصيغة المخاطب جاء في سياق التهديد والوعيد والتحقير أيضاً، وفيه تحدّ مباشر لهم بأنّ قدرتهم وأموالهم لن تكفيهم من عقاب الله شيئاً.

الضمائر التي تشير إلى الأخنس بن شريق:

من خلال السورة، نجد أنّ الضمائر التي تشير إلى الأخنس بن شريق قليلة وتنحصر في ضمير الغائب المتصل في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُنَاجِيكَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ (15) وفي قوله: ﴿سَنَسِيْمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ (16). وفي ضمير الغائب المستتر في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (15).

أمّا باقي الإشارات فكانت عن طريق ما تسمّيه أوركينيوني "عبارات ذات قيم نعتية وتقييمية" وهي في السورة نعت ذميمة وقبيحة الهدف من إيرادها تحقير صاحبها والانتقاص من قيمته، ومن خلالها تمكّن الصحابة والتابعون والمفسرون معرفة الشخص المقصود من الحديث.

الضمائر التي تشير إلى أصحاب الجنة:

تمّت الإشارة إلى أصحاب الجنة في السورة* بصيغة الغائب جمعا (هم) في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (17) وفي قوله أيضاً: ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ (25)

* وردت في الآيات: 45/44/43/41/40/17.
• وذلك في الآيات: 33/30/28/26/23/21/19/18.

غير أنّ هذه الضمائر على تنوعها- منفصلة ومتّصلة ومستترة- فقدت بعدها الإشاري لوجود مرجعها في السياق اللغوي (أصحاب الجنة).

لكن في القصّة نفسها وفي السورة دائما يصبح (أصحاب الجنة) متكلّمين •• في الآية ﴿إِنَّا لَضَالُونَ﴾ (26) وفي الآية ﴿يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ (31) ويشار إليهم في موقع آخر في السورة بصيغة المخاطب باستعمال الضمير (أنتم) متّصلا ومستترا حين يتولّى دور المتكلّم واحد من بينهم، وزلم ما جاء في قوله تعالى ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (28) فيتحوّل الخطاب في هذا المقام إلى تفاعل كلامي بين أصحاب الجنة.

ويمكن القول أنّ الآيات التي يكون المتكلّم فيها شخصا أو أشخاصا غير الذات الإلهية غالبا ما تدخل في إطار الخطاب المنقول، مباشرة أو غير مباشر.

الضمائر التي تشير إلى يونس عليه السلام:

تمت الإشارة إلى نبيّ الله يونس عليه السلام -في السورة- بضمائر الغائب المفرد منفصلة ومتّصلة ومستترة، في قوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (48). وهذه الضمائر كلّها لا تدخل ضمن الإشاريات لحضور مرجعها في السياق اللغوي، لكن تبقى العبارة النعتية "صاحب الحوت" بحاجة إلى سياق خارجي يبيّن معناها.

ويمكن للضمائر أن تدلّ على أكثر من الإشارية الشخصية حين تحمل بعدا إشاريا اجتماعيا. فالإشارة إلى المتكلّم بصيغة الجمع (نحن) ليس تأكيدا على عظمة الخالق سبحانه فقط وإنما تدلّ أيضا على المسافة الاجتماعية بين المتكلّم والمخاطب. ف(نحن) تعني بعد العلاقة بين أطراف الخطاب، فلا يمكن للمخلوق أن يتساوى بالخالق ولا يمكن للمشارك أن يكون مقربا من الله سبحانه وتعالى أمّا حين يستعمل جلّ ثناؤه ضمير المتكلّم المفرد (أنا)- وحصل ذلك فقط حين مخاطبته للرّسول ﷺ - فليبيان طبيعة العلاقة بين العبد المخلص وربّه، خاصّة أنّ الرّسل أقرب البشر إلى الخالق عزّ وجلّ اختارهم دون غيرهم لتبليغ رسالته. كما في هذا القرب نوع من التثبيت والدعم والرفع من شأن المخاطب.

ب- الإشاريات الزمانية: ويقصد بها «عناصر إشارية تدلّ على زمان تحدّده السياق بالقياس إلى زمن التكلّم، فزمان التكلّم هو مركز الإشارة الزمانية، فإذا لم يعرف هذا الزمان التّبس الأمر على المتلقّي»¹.

ولعلّها أشدّ الإشاريات ارتباطا بالسياق فلو غاب عنّا تحديد لحظة التكلّم سيكون مستحيلا تحديد مرجع الإشاريات الزمانية الواردة في الخطاب ولذلك «ومن أجل تحديد مرجع الأدوات الإشارية الزمانية، وتأويل الخطاب تأويلا صحيحا، يلزم المرسل إليه أن يدرك لحظة

•• الآيات: 32/29/27.

¹ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 19.

التلفظ، فيتخذها مرجعا يحيل عليه، ويؤول مكونات التلفظ اللغوية بناء على معرفتها¹. فعدم معرفتنا بلحظة التلفظ سيجعل من الصّعب تحديد ما تشير إليه بعض العناصر الزمانية التي يحتويها الخطاب.

والإشارات الزمانية لا تقتصر على ظروف الزمان إنّما تظهر أيضا في صيغ الأفعال، فالزمن الماضي يدلّ على حدث سابق للحظة التلفظ والزمن الحاضر يدلّ على مجريات لحظة التلفظ. «فالعناصر الإشارية قد تكون دالة على الزمان الكوني الذي يفترض سلفا تقسيمه إلى فصول، وسنوات وأشهر وأيام وساعات... وقد تكون على الزمن النحوي، وقد يتطابقان في سياق الكلام، وقد يختلف الزمن النحوي عن الزمان الكوني»². وقد يحدث تعارضا بين الزمن الكوني المعبر عنه والزمن النحوي المستعمل.

وبالنسبة لظروف الزمان الواردة في سورة القلم فقليلة، جاءت في قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ (24) فكلمة اليوم لا يمكننا أن نحدد مرجعها الإشاري ما لم نكن على علم بزمن الحدث أي الزمن الفعلي الذي حدث فيه واقعة أصحاب الجنة. إضافة إلى أنّ ظرف الزمان (اليوم) يحمل معنى الامتداد فليس المقصود لحظة من ذلك اليوم إنّما اليوم كله. وكذلك في الآية: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (42) فظرف الزمان (يوم) لا تتحدد دلالاته الإشارية إلا من خلال زمن الأفعال الواقعة بعده، والتي تدلّ على الاستقبال. وإن كان اليوم المقصود في الآية معروفا بأنّه اليوم الآخر الذي يرث الله فيه الأرض وما عليها إلا أنّ ضبط مواعده يبقى من الغيبات وهو الأمر ذاته في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعُثَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (39).

فظروف الزمان الواردة في السورة -على قلتها- تشير إلى زمن لاحق لزمن التلفظ لأنّ الله سبحانه وتعالى جعل من السورة إنذارا للمشرّكين فتوعدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة وليطمئن رسوله بأنّه سينتقم له ممن آذاه.

وقد وردت في السورة الكريمة صيغ صرفية وتراكيب لغوية ذات دلالة زمنية مهمة كلفظة "مصحين" في قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرُمُهَا مُصْحِينَ﴾ (17) وفي قوله: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْحِينَ﴾ (21)، فالصيغة مشتقة من (أصبح) أي (وقت الصباح) لكن عن أيّ صباح تحديدا فهذا ما لا يمكن تحديده من خلال السورة وحتى من سياقها.

أما بالنسبة للزمن النحوي فتراوح بين الماضي الدال على ما قبل زمن التلفظ، وقد ورد في قصة أصحاب الجنة وقصة صاحب الحوت وكذلك في ذكره جلّ وعلا للمشرّكين وما دبروه للنيل من الرسول الكريم. وبين صيغة المضارع الدال على الحاضر أحيانا، خاصة في مواضع الوصف كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾ (23). كما استعمل للدلالة على

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 83.

² - محمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 21.

المستقبل (أي مستقبل لحظة التلفظ بالسورة وكذلك المستقبل البعيد -الأخروي-) في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (42) وهذا الاستعمال يتناسب تماما مع مضمون السورة وسبب نزولها، فالله يتوعد الكافرين بالعذاب في الدنيا والآخرة ويعد المؤمنين بالفوز العظيم.

والملاحظ في سورة القلم أنه لا تعارض بين الإشارات الزمانية وما رافقها من زمن نحوي. ولعل قلة الإشارات الزمانية في هذه السورة سبب تركيز خطابها على الزمن البعدي المرتبط بالجزاء والعقاب يوم الحساب.

ج- الإشارات المكانية:

يقصد بها «عناصر تشير إلى أماكن يعتمد استعمالها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، ويكون لتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قريبا أو بعدا أو وجهة»¹.

ولا تقتصر الإشارات المكانية على ظرف المكان بل يمكن أن تضم كل العناصر التي تدل على المكان بالإضافة إلى أسماء الإشارة، لأن «أكثر الإشارات المكانية وضوحا هي كلمات الإشارة نحو هذا وذاك للإشارة إلى قريب أو بعيد من مركز الإشارة المكانية وهو المتكلم»² فأسماء الإشارة إذا عرف ما تشير إليه يمكنها أيضا أن تحدد المسافة بين مكان التلفظ و المشار إليه.

تشير كتب التفسير إلى أن السورة مكية، فالوحي نزل بها على سيدنا محمد في مكة. فتصبح مكة هي مكان التلفظ. لكن لا يمكننا أن نجعل منها مركزا لتحديد من خلاله إشارية العناصر المكانية لأن هذه الأخيرة لا تتعلق بمكان التلفظ على وجه التحديد بقدر ما تتعلق بالسياق الداخلي للسورة وبمضمونها، ولعل هذا ما يصنع خصوصية الخطاب القرآني.

وقد ورد في السورة استعمال اسم الإشارة «ذا» في قوله تعالى ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (14)، كما استعمل مقترنا بهاء التنبيه في قوله تعالى ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ (44) وهي للدلالة على القريب. ففي الآية الأولى دلالة على أن المتحدث عنه شخص من الله عليه بسعة الرزق وكثرة المال، فقد كان قريبا من رحمته تعالى لكنه في المقابل أنكر النعم وكذب بالحق. أما في الآية الثانية يعود اسم الإشارة على القرآن الكريم الذي كذبه أهل قريش ولم يصدقوا أنه وحي يوحى من رب السماء. فالقرآن كلام الله ودلالة على ربوبيته ووحدانيته فتصديقه يقرب إليه جلّ وعلا.

أما اسم الإشارة «ذلك» الدال على البعيد فتكرر استعماله ثلاث مرات. والبعد هنا ليس بعدا مكانيا إنما معنويا يقصد به بعد الكافرين عن الصواب وسبيل الحق، فيبعد مع ذلك تحقق مآربهم وأهدافهم المتمثلة في رد الرسول عن رسالته وإيقاف مسار الدعوة إلى الله عز وجل.

¹ -محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 22.

² - نفسه، ص 22.

أما في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (44)، فـ"حيث" ظرف مكان استعمل في الآية الكريمة للدلالة على أن الله قادر على أخذ الكفار أخذ عزيز مقتدر وأن العذاب سيأتيهم بغتة أينما كانوا. وتبقى اللفظة مهمة حتى عند عودتنا إلى السياق لأنها استعملت لتشير إلى أمر غيبي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

أما عن العناصر المكانية الواردة في السورة فيمكن حصرها في:

- الجنة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ (17) والجنة هنا دنيوية، أما عن أي جنة تتحدث السورة تحديدا فالأمر مبهم، ولا يتضح إلا من خلال الرجوع إلى سياق الآية، فنجد أن المكان المقصود هو «البستان المشتمل على أنواع الخضار والفواكه»¹. وهذا البستان قد يكون في أي بقعة من بقاع الأرض ولكن تناقلت الروايات «أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن - قال سعيد بن جبير: كانوا من قرية يقال لها ضرّوان على ستة أميال من صنعاء. وقيل: كانوا من أهل الحبشة»² كما يروى أن الجنة المقصودة في هذا المقام كانت معروفة وقصبتها عند العرب في زمن الرسول ﷺ. فتحددنا لموقع الجنة على الواقع مرهون بمعرفتنا لما توارده كتب التاريخ والتفسير من أخبار.

واللفظة نفسها جاءت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (34) لكنّها لم تدل على المكان عينه، فإن كانت جنة أصحاب الجنة تحتاج التحديد السياقي لفهم بعدها الإشاري فإنّ جنّات النعيم مكان ذو بعد معنوي أكثر من كونه مادي. فجنّات النعيم مكان لا يتحدّد بجغرافيا التلفظ وإنما يرتبط بمفهوم الفوز الأبدي والنعيم الأزلي الذي وعد الله عباده الصالحين، وتحديد مرجعيته لا علاقة له بالسياق. كما أنه استعمل في السورة بصيغة الجمع الدالة على اختلاف درجات الجنة وكثرة نعمها.

وفي ختام هذه الدراسة توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- 1- تعتمد المقاربة التداولية لأي نوع من الخطاب بما فيه الخطاب القرآني اعتمادا كلياً على السياق، فلا وجود للخطاب خارج السياق.
- 2- يلعب السياق دوراً مركزياً في تحديد درجات التداولية، وتستدعي الدرجة الأولى العناصر السياقية الأساسية المتمثلة في ثلاثية (الأنا-الها-الآن).
- 3- ملامح تداولية الدرجة الأولى تجسدها العناصر الإشارية على اختلافها. وقد تفاوت حضورها في سورة القلم، حيث هيمنت الإشارات الشخصية (الضمائر) على الأنواع الأخرى. وأغلب الظن أن السبب وراء ذلك هو أن القرآن يوجّه رسالة عامّة من خلال نماذج خاصّة ولا

يحصرها في زمان ومكان معينين لأنّه خطاب صالح لكلّ زمان ومكان.

- 4- أغلب الإشارات الشخصية الحاضرة في السورة هي ضمائر المخاطب لأن

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 08، ص 195-196.

² - نفسه، ج 08، ص 197.

السورة نزلت بمناسبة حادثة معينة شارك فيها أشخاص معيّنون تَمَّت الإشارة إليهم في الخطاب بضمائر متصلة ومنفصلة وحتى مستترة، وكانت الغاية منها تثبيت الرّسول عليه الصلاة والسلام وتوعّد المشركين.

5- حضور الإشارات في السورة يرتبط ارتباطا وثيقا بمضمونها من جهة وبأفعال الكلام التي احتوتها من جهة أخرى، فتنوعت بين توعّد المشركين بعذاب الدنيا والآخرة ووعد المؤمنين بالفوز العظيم وأيضا حثّ الرّسول على الصّبر والثبات وكلّ ذلك من خلال ضرب الأمثال.

6- بالنسبة للإشارات الزمانية والمكانية فلم ترتبط بزمان ومكان التلقّف بقدر ما ارتبطت بأزمنة وأمكنة الأحداث المتضمّنة في السورة، وهذا ما يصنع خصوصيّة الخطاب القرآني.

مصادر ومراجع البحث:

- القرآن الكريم.
- أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، ط01، منشورات الإختلاف، الجزائر 2010.
- إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ط02، دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية 1999.
- _____، قصص الأنبياء، تحقيق: عبد الحي الفرماوي، ط05، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة 1997.
- تقي الدين بن تيمية، التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، تحقيق: محمد بن عودة السعوي، ط06، مكتبة العبيكان، الرياض 2006.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، ط32، دار الشروق، بيروت 2003.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ط01، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2004.
- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط 1986.
- محمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط01، مؤسسة الرسالة، بيروت 2006.
- محمد بن سعد الزهري، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق: علي محمد عمر، ط01، مكتبة الخانجي، القاهرة 2001.
- محمد عبد الباسط عيد، النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، ط01، مكتبة الآداب، القاهرة 2009.
- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط01، مكتبة الآداب، القاهرة 2011.
- Catherine Kerbrat-Orecchionni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Colin éditeur, Paris 1980.
- Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, Cérès éditions, Tunis 1995. P258.